المحاضرة التاسعة: مصطلح المدح والفخر والهجاء

أولا المدح: لغة واصطلاحا

جاء في كتاب القاموس لفيروزآبادي : مَدَحَه كَمَنَعَه مَدحاً و مِدحَةً : أحسَنَ الثَّناءَ عليه....والمَديحُ والأُمدُوحَةُ ما يُمدَحُ به، جمعُه : مَدائِح، وأَماديح [1]، قال أبو ذُؤيب مُستعمِلاً كلمة المِدحَة والأماديحَ:

لَو أنَّ مِدحَةَ حَيٍّ أَنشَرَت أَحَدَا أحيا أبوّتكَ الشُّمَّ الأماديحُ[2]

وذكر ابن منظور في اللسان : المَدح نقيض الهجاء، وهو حُسن الثَّناء [3].

وفي اصطلاح أهل الأدب، المدحُ هو وصف الشَّاعر غيرَه بالجميل والفضائل وثَناؤه عليه. وهو غرض شعري يختص بهذا النوع من الثناء (الثناء الحسن) يتوجه به الشاعر إلى ممدوح معين وهو أحد أغراض الشعر العربي العريقة في كل عصوره[4].

ومصطلح المديح متداول عند النقاد. فالأصمعي (210هـ) يرفض إدخال ذا الرمة في زمرة الفحول لتجافيه عن المدح واقتصاره على الرسوم والديار[5]. وابن سلام (231هـ)يفضل زهيرا من أجل المديح، فيقول عنه: "أجمعهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق، وأشدهم مبالغة في المدح"[6]. واشار ابن سلام إلى أغراض الشعر، فذكر منها المديح، والهجاء، والفخر، والنسيب[7].

ويذكر قدامة (327هـ) المديح في باب نعوت المعاني، ويعده من أغراض الشعر الكبرى، وهي عنده: المديح والهجاء والمراثي، والتشبيه والوصف والنسيب[8]. ولكنه- على خلاف عادته-لا يعرفه تعريفا محددا، وإنما هو يحدد خصائصه على أسس أخلاقية، فيقول: "لما كانت فضائل الناس من حيث هم ناس، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان على ما عليه أهل اللباب من الاتفاق في ذلك إنما هي العقل والشجاعة والعدل والعفة، كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيبا، والمادح بغيرها مخطئا"[9]. ولا بأس عنده أن يغرق الشاعر ممدوحه بإحدى هذه الخصال دون غيرها، فهو ليس

---

[1]- الفيروز أبادي، القاموس المحيط، مادة : مدح

[2]- الزبيدي، تاج العروس، مادة : مدح

[3]- ابن منظور، سان العرب، مادة : مدح

[4]- محمد عزام، المصطلح النقدي في التراث العربي، ص317.

[5]- الموشح، 274، .

[6]- طبقات فحول الشعراء، ج1، ص94.

[7]- المصدر نفسه، ص.....

[8]- نقد الشعر، ص61.

[9]- نفسه، ص69.

مخطئا، ولكنه مقصر عن استكمال جميع المدح.[1] وقد لاحظ قدامة أن "مدائح الرجال تنقسم أقساما بحسب الممدوحين من أصناف الناس في الارتفاع، والاتضاع، وضروب الصناعات،والتبدي والتحضير"[2]. وهذا يعني أن هناك مدحا خاصا بالملوك، وآخر بذوي الصناعات،وثالثا بالقواد، ورابعا بالسوقة[3].

ثانيا: الفخر لغة واصطلاحا

الافتخار هو المدح نفسه إلا أن الشاعر يخصّ به نفسه وقومه. وكل ما حسن في المدح حسن في الافتخار.
وكل ما قبح فيه قبح في الافتخار(١)

وقد اختلف العرب في أفخر بيت فقالوا: هو بيت الفرزدق:

إنّ الـــذي سَمَـــكَ السّمـــاءَ بنـــىٰ لنـــا
بيتـــاً دعـــائِمُـــهُ أعـــزُّ وأطـــولُ(٢)

أو بيته:

تـــرىٰ النّـــاسَ إن سِـــرْنـــا يسيـــرونَ خلَفنـــا
وإنْ نحـــنُ أومـــأنـــا إلـــى النَّـــاسِ وقّفـــوا(٣)

وقيل: بل بيت جرير:

إذا غضبـــــتْ عليـــكَ بنـــــو تميـــــمٍ
حَسِبْـــتَ النَّـــاسِ كلَّهـــمُ غِضـــابـــا(٤)

وقيل: بل بيت ابن ميّادة:

ولـــو أنّ قَيْسـاً قيْـسَ عَيْـلانَ أقسَمَـتْ
علـى الشّمْـسِ لـم يطلـع، عليـكَ حجـابُهـا(٥)

وقيل: بل بيت بشّار:

إذا مـــا غضبنـــا غَضْبَـــةً مُضَـــرِيّـــةً
هتكنـا حِجـابَ الشَّمْـسِ أو قطـرتْ دمـا(١)

---

[1]- نقد الشعر، ص 69.
[2]- نفسه، 88.
[3]- نفسه، 88-95.

ثالثا: الهجاء لغة واصطلاحا.:[1]

(الهجاء) لغةً: الذّم والهجاء عند الزمخشريّ، مأخوذة من هجاء الحروف. والمرأة تهجو زوجها إذا عدّدت عيوبه. وللمادة معان أخرى هي أقرب لأن تكون أصلاً للمعنى الأدبي: فالهجاة والهاجة: الضفدع. وهجو يومنا: اشتد حرّه. وهجى: انكشف. وقد يكون المعنى الأدبي مأخوذاً من كل هذه الأصول.

وقد نشأ الهجاء عند الجاهليين كما نشأ عند غيرهم من الأمم والشعوب، تنديداً بالمعايب الشخصية أول الأمر، ثم تقدّم بعد ذلك إلى مشكلات الحياة العامة، فكان منه الهجاء السياسي والأخلاقي والديني. وقد كثر الهجاء بسبب العصبيات القبلية، وتكاثر الغزوات والحروب، حتى أن بعض النقاد والرواة اتخذوا الهجاء مقياساً لتصنيف الشعراء إلى فحول وغير فحول(١).

وقد ورد ذكر الهجاء في النقد الأدبي منذ ابن سلاّم (٢٣١هـ)(٢). وحين رتّب أبو تمام (٢٣١هـ) مختاراته المشهورة (بالحماسة) في عشرة أبواب، جعل الهجاء واحداً منها(٣). ثم جاء قدامة بن جعفر (٣٣٧هـ) فقسم الشعر إلى ستة أقسام، وجعل الهجاء أيضاً واحداً منها(٤). وقد تحدث عن الهجاء باعتباره غرضاً من أغراض الشعر. وهو عنده ضد المديح، وكلما كثرت أضداد المديح في الشعر كان أهجى له»(٥). وأجود الهجاء ما توافرت فيه أضداد الفضائل الخلقية المطلوبة في المديح [2] (انظر الهامش أسفله)

ثم جاء أبو هلال العسكريّ (٣٩٥هـ) فوضع كتابه (ديوان المعاني) جمع فيه عيون الشعر والنثر، وجعله في اثني عشر باباً، وجعل واحداً منها الهجاء(٢). وأخذ ابن رشيق (٤٥٦هـ) هذه التقسيمات نفسها، مع تعديل بسيط.

[3] (ينظر الهامش أسفله)

---

[1]- محمد عزام، المصطلح النقدي في التراث العربي، ص 390.

[2]- (1- كالأصمعي فحولة الشعراء 42. والموشح 58).(2-طبقات فحول الشعراء 65/1).(3- وهي عنده: الحماسة، والمراثي، والأدب، والنسيب ، والهجاء والأضياف، والمديح، والصفات، والسير، والنعاس، والملح، ومذمة النساء.(4- وهي عنده: المديح والهجاء والنسيب والمراثي والوصف والتشبيه وذلك في كتابه نقد الشعر). (5- نقد الشعر 101).

[3]- (نقد الشعر 105).(2- وهي عنده: في التهاني المديح والافتخار. وفي الخصال المحمودة:، وفي المعاتبات والهجاء والاعتذار، وفي الغزل ووصف الحسان، وفي النار والطبخ والطعام والشراب، وفي السماء والنجوم والشمس والقمر، وفي السحاب والمطر والثلوج والمياه.وفي السلاح والحرب. وفي القلم والخط والكتاب وصفة البلاغة، وفي الخيل والإبل والسير والفلوات والسراب وصفة سائر الحيوان، وفي ذكر الشباب والمشيب والعلل والموت والمراثي والتعازي و في أشياء مختلفة).